التجريد -التفريد

هما من مصطلحات الصوفية التى يعبر بها الصوفى عن مقامه ودرجة رقيه فى مقامات التوحيد، ومنزلته بين السالكين السائرين فى الطريق إلى الله، وكذا عن حاله بين الموحدين، ولم يكن لهذين المصطلحين وجود فى القرنين الأول والثانى الهجريين، وربما كان ظهورهما أثرًا من آثار التعمق الشديد للتجربة الصوفية خلال القرن الثالث الهجرى.

والتجريد فى اللغة يعنى التعرية والإزالة فالجسد العارى هو المجرَّد عن الثياب، ومن معانيه التشذيب، بمعنى إزالة الشوائب والتخلص منها، ويقال جرَّدت السيف من غمده بمعنى انتضيته وخلصته منه، كما يقال جرَّدت الثوب من الشوائب، وشذبت الغصن، أى جردته من الزوائد والزيادات.

والتجريد فى اصطلاح الصوفية: يعنى إماطة السِّوى والكون عن القلب والسر، وهذا التعريف قد ارتضاه ابن عربى وقال به فى رسالته (اصطلاحات الصوفية)[1].

أما السهروردى – صاحب العوارف – فقد عرف التجريد بأنه: تجريد العبد نفسه عن ملاحظة الأغيار والأغراض فيما يفعل، فلا يفعل فعلاً لأجل غرض دنيوى ولا لغرض أخروى، بل يقوم بفعله؛ تلبية لما كوشف به من حق العظمة، ويؤديه حسب جهده عبودية لله وانقيادًا له، وليس طلبًا لجزاء دنيوى أو أخروى.

وبالنظر لتعريف السهروردى نجده قد لخص الموقف الصوفى المستغرق لكل معانى التوحيد الذى تجرد عن كل غرض أو عرض[2].

والتفريد: اصطلح عليه الصوفية تعبيرًا منهم عن حالهم فى النظر إلى معنى الفردانية التى يختص الله بها فى صفاته، فهو المتفرد بالخلق والأمر كما قال تعالى: ﴿ أَلَا لَهُ ٱلْخَلْقُ وَٱلْأَمْرُ ﴾ فلا مثيل له سبحانه، ولا نظير له ولا كفء له، ومن هنا اشتق الصوفية مصطلح التفريد تعبيرًا عن حالهم

فى توحيده سبحانه، وإشارة إلى مقامهم تحت سلطان الوحدانية والصمدانية والفردانية، وهو مشتق من الفرد، والفرد – على الحقيقة – ليس إلا الله ذاتًا وصفاتٍ.

أما فى اصطلاح القوم فقد عرفه ابن عربى: «بأنه وقوفك بالحق معك»[٣].

وعند السهروردى: هو ألا يرى الصوفى نفسه فيما يأتى به، بل يرى منَّة الله سبحانه وتعالى عليه فى فعله وفى تركه، وهذا يعنى أن الصوفى لا يرى لنفسه أثرًا فى فعله وفى تركه، بل يرى انفراد الحق بالخلق والترك[٤]: وتظهر العلاقة واضحة بين منزلة التجريد ومنزلة التفريد بين منازل السائرين، فالتجريد يعنى نفى الأغيار، والتفريد يعنى نفى ملاحظة النفس، واستغراق الصوفى فى رؤيته لنعمة الله عليه، وغيبته عن كسبه وأثره فى الفعل أو الترك برؤيته للفردانية الإلهية[٥].

ويقول الكلاباذى عن التجريد والتفريد: إن التجريد هو أن يتجرد الصوفى بظاهره عن الأعراض وبباطنه عن الأعواض، وهو ألا يأخذ من عرض الدنيا شيئًا، ولا يطلب على ما ترك منها عوضًا من عاجل ولا آجل؛ بل يفعل ذلك لوجوب حق الله تعالى لا لعلة غيره ولا لسبب سواه، ويتجرد بسره عن ملاحظة المقامات التى يحلها والأحوال التى ينازلها والتفريد أن يتفرد عن الأشكال وينفرد فى الأحوال ويتوحد فى الأفعال، وهو أن تكون أفعاله لله وحده، فلا يكون فيها رؤية نفس ولا مراعاة خلق، ولا مطالعة عوض، ويتفرد فى الأحوال عن الأحوال، فلا يرى لنفسه حالاً، بل يغيب برؤية محوّلها عنها، ويتفرد عن الأشكال فلا يأنس بها ولا يستوحش منها، وقيل: التجريد ألاَ يَملك والتفريد ألا يُمِلَك، ثم أنشد قول عمرو بن عثمان المكى فى معنى التجريد والتفريد:

تفرد بالله الفريد فريد
فظل وحيدًا والمشوق وحيد
وذاك لأن المفردين رأيتهم
على طبقات والدنو بعيد
فمن مفرد يسمو بهمة قلبه
عن الملك جمعًا فهو عنه يحيد
وأدمن سيرًا فى السمو توحدًا
وكل وحيد بالبلاء فريد
وآخر يسمو فى العلو تفردًا
عن النفس وجدًا فهى منه تبيد
وآخر مفكوك من الأسر بالفنا
فأصبح خلوا واجتباه ودود

فالذى أدمن سيرًا فى السمو متوحدًا بالبلاء، لأنه لا سبيل له إلى ما يطلب،

والذى تفرد عن النفس وجْدًا لا يحس بالبلاء.

والذى فك من أسر النفس بالفناء عنها هو المُجتبى المقرب المتفرد بالحقيقة[٦].

أما الحلاج فقد عرف التفريد بأنه حكم بانفصال شخص عن الآفات، كما أن التوحيد حكم بوحدانية الشىء[٧].

وقد اهتم الصوفية بشرح هذين المصطلحين، والكشف عن درجة كل منهما فى منازل السائرين إلى الله، ومقام السالك فى التجريد والتفريد، وحظه فى ملاحظة التوحيد حالاً ومقالاً، حتى إن الكاشانى قد عرفه بأنه تجريد الخلاص عن شهود التجريد. ووضع له مجموعة من المستويات والصور التى يعبر كل واحد منها عن حال الصوفى ومنزلته، فقال:

١ - وصورته من البدايات التجريد عن المخالفات، واللذات الطبيعية، والمألوفات، والزخارف الدنيوية، والطيبات.

٢ - وصورته فى الأبواب: تجريد النفس عن الميل إلى شهوات الدنيا ودعوات الهوى.

٣ - وفى المعاملات: تجريد النفس عن رؤية تأثير الكائنات ونسبة الأفعال إلى المخلوقات.

٤ - وفى الأخلاق: تجريدها عن الهيئات النفسانية، والملكات الرديئة الشيطانية.

٥ - وفى الأصول: التجريد عن الفتور فى السير والالتفات إلى الغير.

٦ - وفى الأودية: التجريد عن العلوم الاستدلالية بالإلهامات الإلهية والعلوم الدينية.

٧ - وفى الأحوال: التجريد عن محبة السوى والاصطبار مع النوى.

٨ - وفى الولايات: التجريد من الأسماء والصفات وعن رسوم جميع الكائنات.

٩ - وفى الحقائق: تجريد عن الجميع من درك العلم.

أما التفريد فقد بين الكاشانى صورته على نحو ما سبق بيانه لمعانى التجريد وصوره، فقال:

١ - ثم التفريد وهو فى النهاية: تفريد الإشارة عن الحق بألا يشير إلى الخلق فى الهداية والدعوة إلى الله إلا عن الحق، وذلك حال من بسطه الله من الخلق ظاهرًا ليدعوهم إليه، وقبضه عنهم باطنًا لئلا يقول إلا ما قال الحق.

٢ - وصورته فى البدايات: تخليص الإشارة إلى الحق بالعبارة.

٣ - وفى الأبواب: تخليص الإشارة إلى الحق بالعقيدة.

٤ - وفى المعاملات: تفريد الإشارة إلى الحق بالتأثير والتصريف.

٥ - وفى الأخلاق: تصريف الإشارة إلى الحق بالحق والبعث.

٦ - وفى الأصول: تخليص الإشارة إلى الحق قصدًا وسلوكًا.

٧ - وفى الأودية: تخليص الإشارة بالحق محبة وغيرة.

٨ - وفى الولايات: تخليص الإشارة بالحق افتخارًا وبوحًا وتلفًا.

٩ - وفى الحقائق: تخليص الإشارة بالحق شهودًا واتصالاً.

ومن الملاحظ أن الصور التى يتم فيها التجريد والتفريد تكاد تكون متماثلة فى سلوك الصوفى، وهى حالات شعورية يعيشها ويدرك آثارها فى التعامل، ونماذج السلوك، وأمثلة حياتية لما يقوم به الصوفى من أعمال بينه وبين نفسه، أو بينه وبين غيره[٨].

ومن يستقرئ أقوال الصوفية عن هذين المصطلحين يتبين له أن التجريد تدور كل معانيه حول خلو القلب مما سوى الله حالا ومآلاً.

وأن التفريد تدور كل معانيه حول تحقق العبد بالحق فى أفعاله وأقواله وأحواله، فلا يرى فيها أثرًا لغير الله حتى يحقق قول الرسول ﷺ: كنت سمعه الذى يسمع به وبصره الذى يبصر به ويده التى يبطش بها، [الحديث].

وقد شرح الإمام ابن القيم تعريف الهروى للأنصارى (٤٨١هـ) (أحد أئمة الصوفية) لهذين المصطلحين، وأشار إلى أن التجريد درجة من درجات تحقق السالك بمقام الفقر الذى يعيشه الصوفى حالاً ومقالاً؛ حيث يتوجه العبد فى جميع أحواله إلى الله.

وقد عرَّف التجريد وقسَّمه درجات ختمها بقوله: الدرجة الثالثة صحة الاضطرار والوقوع فى يد التقطع الوجدانى والاحتباس فى بيداء قيد التجريد، وهذا هو فقر الصوفية، وفى هذه الدرجة من التجريد... تمحو رؤية التوحيد عن العبد شواهد استبداده واستقلاله بأمر من الأمور، ولو كان هذا الأمر حالاً من أحوال النفس كاللمحة والطرفة والهمة والخاطر والوسوسة؛ إلا بإرادة المريد الحق سبحانه وتدبيره ومشيئته، ويبقى العبد كالكرة بين صولجانات القضاء والقدر، تقلبها كيف

شاءت،بصحة شهادة العبد قيومية من له الخلق والأمر،وتفرده بذلك دون سواه... وهناك يشهد العبد فى كل ذرة من ذراته الظاهرة والباطنة فقرًا تامًا إليه سبحانه، من جهة كونه ربًا خالقًا ومن جهة كونه إلهًا معبودًا، وهذا هو الفقر الأعلى الذى دارت عليه رحى القوم، وفى هذا المقام يكون الصوفى،الموصوف بهذا الفقر ما أغناه من فقير، وما أعزه من ذليل، وما أقواه من ضعيف، وما آنسه من وحيد، فهو الغنى بلا مال، والقوى بلا سلطان، والعزيز بلا عشيرة، وقرَّت عينه بالله فقرت به كل عين، وهذا هو الفقر المحمدى، والتحقق بصحة هذا ومعرفته يوجب صحة الاضطرار ويحول بين المرء ورؤيته أعماله وأحواله، والتحقق بهذا هو نظام التوحيد، ومن وصل إلى هذا الحال فقد وقع فى يد التقطع والتجريد وأشرف على مقام التوحيد الخاص.

ومتى وصل إليه الصوفى فاق حُب الله من قلبه كلَّ محبة، وخوفه كل خوف، ورجاؤه كل رجاء، فلا تتعدد الإرادات وإنما تتوحد فى عينه إرادة الحق فيتوحد الطلب وتتوحد الإرادة، ويتوحد المراد والمطلوب، فإذا غاب بمحبوبه عن حب غيره، وبمألوهه عن مألوه غيره،صار من أهل التوحيد الخالص، وهذا هو محض التجريد، لأن الصوفى حينئذ قد تجرد عن ملاحظة سوى محبوبه أو آثاره أو معاملته أو خوفه أو رجائه. وهذا هو تجريد توحيد الألوهية، أما صاحب تجريد توحيد الربوبية فهو فى قيد التجريد عن ملاحظة فاعل غير الله، وهو مجرد عن ملاحظة وجوده هو، وهذا فرق بين تجريد توحيد الألوهية وتجريد توحيد الربوبية.

فالأول تجريد عن ملاحظة سوى مراضى الله ومراداته ومحبوبه وأوامره.

أما الثانى: فهو تجريد عن ملاحظة سوى الفاعل الحق؛ وهو الله.

وتجريد توحيد الألوهية هو الذى سمت إليه همم السالكين، فمن تجرد عن ماله وحاله وكسبه وعمله ثم تجرد عن شهود تجريده فهو المجرد عند القوم، وهذا هو التجريد الذى عليه يحومون وإياه يقصدون، ونهايته عندهم؛ التجريد بفناء وجوده وبقائه بموجوده، بحيث يفنى من لم يكن ويبقى من لم يزل.

ويشير ابن القيم إلى أنه وراء هذا التجريد الذى أشار إليه الهروى تجريد آخر أكمل منه وأتم منه، ونسبته إليه كتفلة فى بحر وشعرة فى ظهر بعير، وهو تجريد الحب والإرادة عن الشوائب والعلل

والحظوظ، فيتوحد حبه كما توحد محبوبه، ويتجرد عن مراده من محبوبه بمراد محبوبه منه، بل يكون مراد محبوبه هو نفس مراده، وهنا يعقل القول باتحاد المراد، فيكون عين مراد المحبوب هو عين مراد المحب، وهذا هو غاية الموافقة وكمال العبودية، ولا تتجرد المحبة عن العلل والحظوظ التى تفسدها إلا بهذا ويرى ابن القيم أن التجريد والفناء من وادٍ واحد، وجعله الهروى من أقسام النهايات وعرفه بأنه: الانخلاع عن شهود الشواهد، وأشار إلى أنه ثلاث درجات:

الدرجة الأولى: تجريد الكشف عن كسب اليقين.

الثانية: تجريد عين الجمع عن درك العلم.

الثالثة: تجريد الخلاص عن شهود التجريد.

ويشرح هذه المستويات الثلاثة فيقول: إن تجريد الكشف عن كسب اليقين هو أن يشهد العبد سبق الله بمنته وفضله لكل سبب ينال به يقين الإيمان، فيتجرد كشفه عن ملاحظة الأسباب والبراهين وينتهى نظره إلى المسبب الأول، بحيث لا يبطل الأسباب عن كونها أسبابا، وإنما يتجاوزها بعدم الوقوف عندها، وملاحظة المسبب الأول الذى جعلها أسبابًا.

وأما تجريد عين الجمع عن درك العلم فيعنى تجريد العبد عن العلم والإدراك فالأول تجريد عن رؤية السبب، والثانى تجريد عن العلم والإدراك؛ بحيث يتحقق السالك بتفريد الرب سبحانه بالحكم عن إثبات الوسيلة والسبب.

وأما تجريد التخلص من شهود التجريد فهذا يستغرق النوعين السابقين؛ لأن صاحب هذا المستوى من التجريد قد اجتمعت همته على الحق، وشغل به ملاحظة عين الجمع عن ملاحظة ذكره وعلمه، وقد استغرق قلبه كل ذلك، فلا متسع فيه لشهود علمه بتجريده ولا لشعوره به، فلا التفات له إلى تجريده، ولو بقى له التفات إليه لم يكمل تجريده.

ويرى ابن القيم أن وراء هذا كله ما يسميه (تجريد الحنفية) وهو تجريد الحب والإرادة عن تعلقها بالسوى، وتجريد العلل والشوائب والحظوظ التى هى مرادات النفس[٩].

ويربط الهروى معنى الاستقامة بالتفريد فى قوله تعالى: ﴿ فَٱسْتَقِيمُوٓاْ إِلَيْهِ ﴾[التوبة:٧]. ويقول: إنها إشارة إلى عين التفريد. يريد أنه تعالى أرشدهم إلى شهود تفريده، وهو ألا يروا غير فردانيته. ويشرح ابن القيم

ذلك قائلاً: إن تفريده نوعان: تفريد فى العلم والمعرفة والشهود، وتفريد فى الطلب والإرادة، وهما نوعا التوحيد [١٠].

ويرى أبو نصر السراج الطوسى صاحب اللمع: أن التفريد والتجريد والتوحيد ألفاظ مختلفة لمعان متفقة وتفصيلها على مقدار حقائق الواجدين لها وإشاراتهم إليها، وقد عرف التفريد بأنه: إفراد المفرد – أى الرب جل جلاله – برفع الحدث، وإفراد القدم بوجود حقائق الفردانية[١١].

ومما تجدر الإشارة إليه أن أئمة القوم فرقوا بين التجريد الذى يصل بصاحبه إلى الفناء عن وجود السوى؛ فحذروا منه لأنه قد يؤدى إلى وحدة الوجود التى يتلاشى فيها الفرق بين الخالق والمخلوق، بين القديم والمحدث، وقالوا لابد أن تكون درجات التجريد محافظة على الفارق والمباينة بين الخالق والمخلوق والعابد والمعبود.

أ. د/ محمد السيد الجليند

الهوامش:

(١) الجرجانى: ذيل التعريفات ص٢٣٨.

(٢) انظر: عوارف المعارف ص٣٦٧، التعريفات للجرجانى مادة تجريد.

(٣) ابن عربى: اصطلاحات الصوفية.

(٤) انظر: عوارف المعارف، هامش إحياء علوم الدين ٣٥٥/٥ نقلاً عن مدارج السالكين ٢/٣.

(٥) انظر: عوارف المعارف: ص٣٦٧.

(٦) انظر: التعرف لمذهب أهل التصوف لأبى بكر الكلاباذى ص٣٣ - ٣٤ ط ١٩٦٩م بالقاهرة مراجعة محمود أمين النوادى.

(٧) انظر: الهجويرى: كشف المحجوب ٥٢٢/٢.

(٨) راجع فى هذه الصور والنماذج: اصطلاحات الصوفية للكاشانى ص٣٧٣ - ٣٧٧ بتحقيق عبد العال شاهين ط١ ١٩٩٢م، القاهرة.

(٩) انظر: تفصيلات أكثر فى طريق الهجرتين لابن القيم.ط محب الدين الخطيب ص١٦ - ٣٣.

(١٠) ابن القيم: مدارج السالكين: ٩٨/٣ - ٩٩.

(١١) انظر: مدارج السالكين ٩٨/٣، تحقيق د.عبد الحميد مدكور.